البحر قريب ..
لكن «أندرياني» أقرب، ربما !!

يوسف الشايب

(1)

. . وما زلنا قادرين على الانبهار بمعاناة الآخر، رغم أنّ المعاناة تغمرنا حتى الثمالة، بل وتتطاول لتغمر ما تبقى من رفات الأجداد، أو صورهم على الجدران، إنْ نجت هذه الصور من محاولات الاغتيال المستمرة، سواء برشاشات من عيار 500 أم 800، أو حتى بطائرات «الأباتشي» والـ«F16» . . نعم نحن مثقلون بالمعاناة، لكننا، وفي كثير من الأحيان، لا نراها، رغم أنّها قريبة منا . . تفصل بيني وبين زوجتي في الفراش ربما، أو قد تكون أقرب لي من نظارتي الطبية، التي لا أرى العالم بصورته القبيحة، وحتى الأقل قبحاً، دونها.

ليس غريباً . . فقبل أشهر قليلة توفّيت عجوز ثمانينية في إسبانيا، وكان البحر قريباً جداً من قريتها، لكنها، وطوال هذا العمر الذي امتد إلى أكثر من 42 مليون دقيقة، لم تر البحر . . هذا ما أكدته وكالات الأنباء، عندما تناقلت الخبر!

(2)

في مؤسسة عبد المحسن القطان، في رام الله، نظّم في الثلاثين من آب الماضي، حفل توزيع جوائز المؤسسة للكاتب الواعد للعام 2001 . . كان الحفل حميمياً، ولكن ليس حتى الثمالة . . خرجت آنذاك عدنية شبلي، الفائزة بجائزة الرواية، لتعلن أنها تتناصف جائزتها البالغة أربعة آلاف دولار أميركي مع إحدى الخادمات القادمات من سيريلانكا . . تحدثت، عن معاناة «أندرياني»، هذه التي تعمل خادمة عند أصدقاء الروائية الشابة، والتي ولدت في العام الذي ولدت فيه الروائية أيضاً، . . فـ«أندرياني» لم تر طفليها منذ حين، والروائية لاحظت الحزن الدفين في عينيّ تريبتها، عندما كانت تداعب أطفال المخدومين . . استنكرت الروائية، أيضاً، الإجراءات التعسفية التي يتخذها المخدومون بحق الخادمات، التي «أندرياني» إحداهن، لا سيما حجز جوازات سفرهن، كي لا يغادرن على حين غرة، وبدأت تشبه هذا الإجراء الاحترازي والمعاناة التي تترتب عليه بمعاناة الفلسطينيين على الحواجز، إذا احتجزهم جندي إسرائيلي، أو احتجز البطاقات الشخصية!

وقالت: «إذا احتجز جندي إسرائيلي بطاقة أحد الفلسطينيين الشخصية، دقائق أو ساعات، فإننا نلعن اليوم الذي شاهدنا فيه إسرائيلياً، فما بالنا ونحن نحتجز جوازات سفر الخادمات سنوات».

صفق لها الجميع . . بمن فيهم كبار الساسة والشعراء والأدباء . . لم أستطع التصفيق . . لا أدري . . ربما لأنني

أحب هذا البحر . . بحرنا . . ولا أتخيل أن أصفق لشخص يعشق بحراً في سريلانكا، وينسى بحر غزة . . أنا لا أكره البحور الأخرى، لكني لا أهواها، أيضاً.

(3)

بعد الحفل بيوم، سمعت في المذياع، رغم أنّه ليس من أصدقائي المقربين، حكاية «أم أحمد»، تلك التي يمنع المرض زوجها من مغادرة فراشه، ما اضطر ابنها ذا الثانية عشرة سنة، أن يهجر مدرسته، ويأخذ على عاتقه مسؤولية إطعام تلك الأفواه الجائعة، التي تنتظر عودته بفارغ الصبر . . أم أحمد تقول إنها رفضت عمل ابنها في منطقة قريبة من المنزل، سيما أنها كانت تشاهده يُضرب من ربّ العمل، ووجدت أنّه من الأفضل أن يضرب دون أن تراه . . كما تحدثت عن حذاء واحد لثلاثة أشقاء، ما أن يرتديه أحدهم، حتى يمتنع الآخران عن الذهاب إلى المدرسة، سيما أن المعلمين وإدارة المدرسة، يرفضون قدومهما بـ«الشبشب»، بل يؤنبونهما، وقد يضربونهما، وهذا الحال هو نفسه مع ابنتيها اللتين كثيراً ما تتشاجران على بنطال مشترك . . لا أدري ما يحدث إن تمزق البنطال في إحدى المشاجرات المتكرّرة. حكاية أم أحمد، أبكتني، شعرتها تتحدث عن شيء أراه وأعايشه، والأهم من ذلك أشعر به . . أما معاناة «أندرياني»، فرغم بعدها الإنساني، فإنّ حجم المعاناة الذي يحيط بنا ويتملكنا يحجب عني الرؤية أبعد من جغرافيا فلسطين.

قد يرى البعض أنني ضيق الأفق، محدود الرؤية، لا إنساني . . فليكن، لكنني أعشق البحر القريب من قريتي، ولا أفارقه إلا نادراً . . أنا فخور به وربما يكون هو، أيضاً، فخوراً بي.

(4)

تساءلت كثيراً . . حاولت التبرير . . والبحث عن إجابات منطقية بخصوص هذه الإسبانية التي لم تر البحر القريب من قريتها، طوال ثمانية عقود. . ربما كانت عمياء، لكن الأنباء لم تذكر ذلك . . ربما كانت لا تدري، وهذا، أيضاً، غير صحيح، فكثيراً ما أكلت هذه العجوز من خيراته، ربما إذاً لم يسمح لها الوقت . . لا أعتقد، بعشر دقائق من 42 مليون دقيقة، لسن أمراً معجزاً . . لكن يبدو أنّها لا تحبّ البحر، ولا ترغب في زيارته، أو ربما تشمئز منه، لأنه خاصتها . . وهذه الكارثة !!!

(5)

فور إعلان الروائية تقاسم جائزتها تلك مع «أندرياني»، وبعد موجة التصفيق الحادة والحارة، بدأ البعض يتهامس: «إنها حركة ذكية» . . «لقد استطاعت أن تمس الجمهور» . . «يا ليتني كنت خادمة من سريلانكا لأتقاسم الجائزة معها» . . «يبدو أنها لا تدرك أن ثمة أناساً يكاد أن يفتك بهم الجوع عندنا» . . «لا تلوموها فهذه هي المعاناة التي تعايشها» . . «رائع» . . «ما هذا . . . ؟!» . . «واووووووو».

(6)

لست قيّماً على أحاسيس أحد، أو على فلسفته للأمور، أو رؤيته للعالم . . ولم أر نفسي هكذا، ذات يوم، أو أسمح لها بذلك، فكما أرفض أن يكون أحد ما قيّماً على أحاسيسي، وفلسفتي للأمور، فإنّني أرفض أن أمارس تلك السادية الشنيعة والبشعة حتى القرف . . الأمر بالنسبة إليّ ليس إلاّ محض مشاعر انسابت دون تكليف أو تزويق . . لا أدعي أنها تطاول درجة الكمال في صحتها، فالصحة والخطأ معياران فاشلان إذا تم تطبيقهما على المشاعر والأحاسيس . المسألة ليست أكثر من كونها مجرد رأي . . مجرد إحساس.

(7)

«أندرياني» . . أرجو المعذرة . .

أنا أحب البحر كثيراً . . خصوصاً إذا كان فلسطينياً!